الإسلام

ومسائله في التاريخ

تأليف المستشرق المعروف

كارل . هـ . بكر (١)

C. H. Becker

— ١ —

لست أجد من ضرورة في الوقت الحاضر تحفزني إلى تبرير وجود الاسلام توطئة لدرسه . وكما أن درس التاريخ القديم يتمشى جنباً لجنب مع درس اللغات القديمة ، كذلك بحث الاسلام من الوجهة التاريخية ، انما يتيسر بدرس فيلولوجي — لغوي — يتناول اللغات التي تتكلمها الأمم المحمدية .

ومن السهل في مقال تمهيدي كهذا ، أن نلم الماماً أولياً بتلك المشكلات المتشابكة التي يجب أن يتصدى لها الباحث اذا ما أزمع أن يدرس الاسلام .

غير أنه يكون من الحماقة أن يضع الباحث تصميماً للطريقة التي يجب أن ينصرف اليها ، من غير أن يحاول في الوقت ذاته أن يضيف إلى الموضوع شيئاً جديراً بالنظر والاعتبار . لهذا عمدت في هذا المقال إلى بحث مسألة الاسلام نفسه ، لا المسائل المتعلقة بالاسلام .

تستعمل لفظة « الاسلام » عادة في كثير من المعاني المختلفة . فقد نستعملها لندل على دين الاسلام سواء أتكلمنا في تعاليم محمد الأصلية ، أم في مجموع المذاهب القديمة التي هي شيء مختلف تمام الاختلاف عن تلك التعاليم ، أو في دين المسلمين المعروف

---

(١) كارل . هـ . بكر Carl. H. Becker وزير الفنون والعلم والتربية في ألمانيا ١٩٢٧ — وهو أحد مشهوري المستشرقين . أما أبحاثه الاسلامية فتعتبر من أدق الأبحاث وأعلاها وأكثرها ابتكاراً وأحياها فكرة وأصحها سنداً . ولقد ترجم كتابه (فتوحات العرب) الى الانجليزية وضمنته جامعة كمبردج الى مجلداتها التي خصصتها لتاريخ القرون الوسطى ١٩١٢ — وله مجلة ذات شهرة عالمية اسمها (الاسلام) Der Islam تكاد تكون المحور الذي تدور من حوله كل الأبحاث المبتكرة في تاريخ الاسلام . وتعد منبعاً للتنقيب المنتج في أخص المسائل التي تتعلق بالمدنية الاسلامية (المصور)

اليوم في آسيا وافريقية . وسواء أوعينا في أذهاننا أوجه النشاط الديني التي يبديها الأتراك أو الزنوج ، وسواء أتكلمنا في الغزالي أم في المهدي السوداني ، فاننا نستعمل اللفظ ذاته ونقول « الاسلام » . وكلما كانت معارف الناس أقل ، كانوا أشد نزعة إلى التعميم . فمن ذا الذي يجرؤ مثلا على أن يصف الاوضاع الكنسية في بلاد الحبشة بأنها ذات النصرانية ، من غير أن يعرض نفسه للاستهزاء والسخرية ؟ ولا جرم أن القول بان هذه الأوضاع هي بذاتها البروتستانتية النصرانية ، من غير تعديل أو تكافؤ بين الحالات ، لأبعد من أن يتورط فيه باحث يزن الاشياء بميزانها الصحيح . ولم نكتف بهذا ، بل استعملنا لفظ « الاسلام » ليدل على إحدى امبراطوريات الشرق العظمى ، أو على كل الحكومات المتفرقة التي كانت تنشأ عادة على أنقاض الامبراطوريات الكبرى وبقاياها ، حتى لقد نطلق الاسم على الحكومات المحمدية التي نراها قائمة من الزمان الحاضر . غير أننا لم نعن « بالاسلام » مجرد الحكومات الفعلية ، بل صرفناه على شيء أكثر من هذا خطراً . فعرفناه على أن نظرية سياسية سواء أقامت تلك النظرية على مذهب سياسي أو مبدأ تنزيلي .

وكلما استعمقنا في بحث هذا الموضوع ، ازددنا اقتناعاً بضرورة التفريق بين المدلولات . غير أنه ليس في وسعنا أن نقرر بصلابة أن تعريفاً جامعاً مانعاً يجب أن يوضع لتحديد ما نعني بلفظ « الاسلام » في كل حالة من الحالات الخاصة ، وعلى الأخص إذا عمدنا إلى وضع تقديرات معينة للقيم المتناظرة . على أن الباحث الاختصاصي مهما جهد نفسه في التحوط والحذر ، ومهما بذل من عناية في استخلاص تلك التحديدات الضرورية ، فانه لامحالة يستعمل تلك اللفظة العامة — « الاسلام » — على أنه يجب أن نتساءل : هل لهذا من مبرر ؟ أو بعبارة أخرى : هل كل المعاني المختلفة التي يجمع بينها هذا الاصطلاح ، تدخل حقيقة تحت مدلول « الاسلام » عامة ، ذلك المدلول الذي لايخرج بدياً وتخصيصاً ، عن أنه دين ؟ غير أن هذا السؤال قد أجبنا عليه مقدماً وحددناه ، إذ قلنا بأن اصطلاح « الاسلام » ومسألته في التاريخ ، قد استعملناه من غير أن نضيف إلى ظاهره مدلولات أخرى .

أما وقد حللنا كلمة « الاسلام » ، فانا بذلك نكون قدجاوزنا النظر في العوامل الأساسية ، التي إذا أخذت في مجموعها ؛ كونت ذلك الشيء الذي نحس بأنه التصور الوحيد الذي يمكن أن نكونه في « الاسلام » : أي ذلك الايمان الكلي المتماسك الاطراف ، وذلك المثل السياسي الاعلى المتآلف الاجزاء ، وتلك المدنية المتناسقة التي

تمشى فى أجزائها فكرة الوحدة والائتلاف ، والتى فضلا عما نجد فيها من الاختلافات الموضعية ، تلمح فى مجموعها وحدة المثل العليا ، كما تقع فيها على شىء من الوحدة فى العمليات . وما من شك فى أن « الدين » هو الذى يجمع بين هذه العوامل الشتيتة ، وأن الفكرتين ، السياسية والمدنية كلتيهما ، لم تكونا لتنتشرا وتثبتا مع الزمان ، لولا قيامهما على قاعدة الدين . وكذلك نجد فى الوقت الحاضر أن « الاسلام » رابطة من الوحدة قوية ، عادلت فى كل عصور « الاسلام » قوة « القومية » الشديدة الأثر فى النفوس : جمعت بين الناس وكونت منهم عصباً أقوى وأشد مراساً . فان زنجياً من زنوج قبيلة « الونغيدو » — Wangido فى شرق افريقية الألمانية اذا أصبح مسلماً ، فانه لا يسمى باسم قبيلته بل يقسمى « بالاسلام » . (١) ويصبح العربى أخاً للزنجى المسلم ، وبذلك تتماسك كل الخيوط المختلفة وتتفق كل النزعات المتنافرة من حول المركز الدينى فى مكة (٢) وفى مناوأة أوروبا على الأخص . نجد أن المسلمين يشعرون شعوراً عميقاً بأنهم وحدة متماسكة الاطراف (٣) لهذا يحق لنا أن نتكلم ، مادام أن الدين يصبغ الحياة اليومية بصبغته الخاصة ، إن قليلا أو كثيراً ، فى مدنية إسلامية موحدة الاجزاء ، تنقل إلى الذهن دائماً حقيقة إن هـــذه المدنية الدينية مؤثر فصل يقطع بين حدين قطعاً تاماً

وهذه الحالات التى لاشك مطلق الشك فى أنها لاتزال قائمة حتى اليوم ، قد زادت إلى صعوبة الفهم لدى البحث فى تاريخ نشوء الاسلام . وإذ نعرف أن الدين إلى الوقت الحاضر ما يزال العامل الأقوى الذى تقوم عليه كل الأشياء الأخرى مما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، وإذ نرى أن كل الظاهرات التاريخية الخاصة بالاسلام يجب أن يرجع فيها إلى مؤسس الديانة ، فأى شىء يمكن أن يكون أقرب إلى البديهة من أن نعتبر

---

1 Missions — Bletter (journal of the st . Benedictus — Missions — Jenossenchaft, st. Ottilien) X111, Heft 9. p 130.

٢ — راجع كتاب ويلسون كاش — Wilson Cach — العالم الاسلامى فى انقلاب ص ٠١ فانك تجده يقول . ابتدأنا نختلط بالحجاج وقد از معوا السفر إلى الأقطار المقدسة . ولقد استطعنا أن نتخاطب مع بعضهم ونسألهم من تكونون فكان جوابهم جميعاً واحد اذكانوا يقولون — مسلمون — Muslimeen ولم يستطيعوا أن يدركوا غرضنا الابعد تكرار السؤال مرات عديدة ، اذ أيقنوا بأننا نسأل عن قوميتهم .

٣ — نشك كثيراً فى صحة هذا الرأى الآن . فان فكرة القومية قد استقرت فى النهاية على كل العناصر الاسلامية فى أنحاء الدنيا.

الدين العامل الاساسى ، ان لم يكن العامل الاوحد ، الذى تعود اليه حقيقة خلق مدنية إسلامية متلائمة الاطراف ؟ (١)

ولدينا عامل آخر نتج عن العكوف على عادة النظر فى الاشياء من وجهة النظر الكنسى ، تلك العادة التى ورثناها عن القرون الوسطى . ولا جرم أن هذا الاتجاه لا يزال ثابتاً فى نفسيتنا لدى النظر فى الاسلام حتى الوقت الحاضر . فقد اعتدنا فى القرون الوسطى وحتى فى أوائل العصر الحديث ، أن ننظر الى الاسلام بدياً على أنه دين معاد ، وضع حداً لانتشار المسيحية وهددها فوق أرضها ، وغزاها فى دارها . وكانت النظرة التى نظر من ناحيتها فى نشوء الاسلام قد انحصرت فى الاعتقاد بأن الدين الجديد قد ملأ صدور العرب حماسة وأفعمها حمية ، وأن المسلمين قد اندفعوا الى الفتح الحربى تحت تأثير الرغبة الشديدة فى هداية أهل الارض الى الاسلام ، وأنهم يعملون على نشر دينهم بالسيف ، وان محمداً كان نبياً ورجلا سياسياً معاً ، بل أعتقدوا بأن الثقافة العربية ممزوجة بالدين الجديد ، الاسلام ، قد كونت تلك الصورة التى تعرف بالمدنية الاسلامية ، وانه على الرغم من أن عدداً من النظامات والفكرات الجاهلية ، قد استمرت باقية ثابتة الاثر ، فان الدين وحده لم يكن السبب الذى خلق المدنية الجديدة ، بل صورها ونظمها لا غير .

إذن فالدين هو القاعدة ، وكل الصور النشوئية الاخرى ، لم تكن الا نتيجة من نتائجه . فكان من الضرورى على مقتضى هذه الفكرة ، أن يدمغ الدين طابعه الثابت فى جبين الوحدة الصورية والخلقية . ومن هنا نشأت الفكرة فى مدنية اسلامية متلائمة الاجزاء ، موحدة الاطراف .

ولا مشاحة فى أن كل باحث يتصل بكتاب العرب وفكره ملىء بمثل هذه الآراء . ويجانبها نظرة غير صحيحة نشأت حول تاريخ النصرانية (٢) ، يجد أنها آراء

---

١ ــ هذا الرأى صحيح من كل الوجوه ، فالمدنية التى نسميها المدنية العربية ليست لدى الحقيقة الامدنية اسلامية أخذت صبغتها العامة من وقع استمدت من مختلف صور الحضارة التى انتعشت بها الشعوب التى دخلت فى حوزة الاسلام والفت بينها على النحو الذى نراه جلياً فيما نسميه بالمدنية العربية ــ المصور

٢ ــ يشير الكاتب الى ارنست تروالتش Ernst Troeltsch فى كتابه ــ (Collected Works Vol. I.) Die Soziallehren der christ lichen Kirchen

ويعترف المؤلف بأنه مدين لهذا المؤلف بكثير من الفكرات التى عنت له خلال هذا البحث من قراءة هذه القطع وغيرها من القطع المتناثرة خلال هذه المجموعة .

لها سناداتها ومبرراتها . ذلك لأن السلطات المحمدية لها قواعد كهنوتية (١) مقررة مفروغ منها . كذلك تراهم يقررون جملة ، بأن نشوء الاسلام من خلق محمد ، ومن ابتكار الخلفاء الراشدين فى عصر الاسلام الذهبى . وعندهم ان الحكومة والمجتمع ، وكذلك الحركات العلمية والاقتصادية ، جماعها تخضع للاوضاع الدينية . وكان المتبع أن يخلع من هذه الارض الدينية التى اعشوشبت بمختلف النظريات ، كل نبتة طفيلية يمكن أن تنبت فى جنب من جوانبها ، وتنبذ نبذا . اذن فالعالم الاسـلامى محكوم بالدين ، سواء أفى ماضيه أم حاضره ، ولو نظرياً على الاقل .

غير أن النقد الحديث لم يتناول هذه المباحث الامنذ عهد قريب لايتجاوز بضعة عقود من الزمان ، وعلى الاخص بعد ظهور كتاب « تاريخ الثقافة » Kulturgeschichte الذى الفه العلامة الكبير ، الفرد فون كريمر ، Alfred Von Kremer ولقد نجحت الابحاث الحديثة تدرجاً وعلى مر الايام فى أن تحرر من تقاليد « الاسلام » ، وعمد الباحثون وطلبة العلم ، سواء أفى السياسة والشريعة ، أم فى الدين والحياة : الى التفريق بين النظريات والعمليات ، ولقد حققوا بهذه الوسيلة ان الانتصار فى المعركة التى قامت بين مطاليب الدين ومقتضى العادات القومية ، قد حالف الثانية دون الاولى . بل أثبتوا أنه فى خلال الصراع الذى قام بين مختلف الآراء المتنابذة ، لم يكن اللون الدينى غالباً الا عبارة عن وضع أدبى ، لا أقل ولا أكثر . ورأوا أن الشريعة الدينية لم تنشأ متطورة عن الاوضاع التشريعية العملية التى كانت قائمة بالفعل ، بل أتت منابذة لها ، ومن ثم اتضح أن بناة الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم على اطلاق القول ، بل عملوا ، فى أول ماعملوا له ، على تثبيت سلطة العرب الزمانية وتركيز سيادتهم فى ماجاورهم من الامبراطوريات ولا جرم أن جماع هذا يزودنا بمادة واسعة تشبع نهم الفكر . لهذا يحق لنا أن نتساءل حين نواجه هذه الحقائق ، أليست فكراتنا التقليدية التى ثبتنا عليها فى حقيقة الدور الذى لعبه الدين كعامل من العوامل المكونة فى الاسـلام ، تحتاج إلى تعديل ، وتفتقر إلى اصلاح ؟ (٢)

« البقية فى العدد التالى »

---

(١) Clerical

(٢) المصور — ستوالى نشر هذا المقال التى فى أعداد المصور تباعاً لتعذر نشره دفعة واحدة لما يحتاج من الفراغ الكبير.